المحاضرة الثالثة:

النظرية النقدية في العلاقات الدولية

Critical Theory in International Relations

النظرية النقدية في العلاقات الدولية هي **اتجاه ما بعد وضعي**، يهدف ليس فقط إلى تفسير الواقع الدولي بل إلى نقده وتغييره، مع التركيز على كشف علاقات الهيمنة وعدم المساواة وإمكانات التحرر والعدالة على المستوى العالمي.

ظهرت أساسا من تأثير **مدرسة فرانكفورت** ثم تبلورت في **حقل العلاقات الدولية** مع أعمال **روبرت كوكس وكين بوث ويورغن هابرماس** وغيرهم.

تقدم **النظرية النقدية** بوصفها مقاربة تسعى ليس فقط إلى تفسير النظام الدولي، بل إلى **نقده والعمل على تغييره**؛ فهي تنتقل من سؤال **كيف يعمل النظام الدولي؟** إلى سؤال **لصالح من يعمل؟ ومن يتم تهميشه داخله؟**

تركز النظرية على علاقات الهيمنة، واللامساواة، وأشكال السيطرة البنيوية والخطابية التي تخفيها النظريات التقليدية الواقعية والليبرالية.

بناء عليه، تبرز إشكالية المحاضرة في التساؤل التالي:

إلى أي حد تمثل النظرية النقدية في العلاقات الدولية انتقالا من نظريات تفسيرية تكتفي بوصف الواقع وتفسيره، إلى نظرية نقدية تسعى إلى كشف علاقات الهيمنة الكامنة في النظام الدولي والعمل على تجاوزها؟

وتتفرع عنها أسئلة فرعية:

- كيف تنتقد النظرية النقدية ادعاء الحياد والعلمية في النظريات الوضعية (الواقعية، الليبرالية، وبعض البنائية)؟
- كيف توظف النظرية النقدية مفاهيم: السلطة، الأيديولوجيا، والهيمنة لتحليل النظام الدولي والمؤسسات العالمية؟

أولا: الجذور الفكرية للنظرية النقدية:

تتمثل في أربع محطات رئيسية في تطور حقل العلاقات الدولية، وهي كالآتي:

1- مدرسة فرانكفورت والتمييز بين "النظرية التقليدية" و"النقدية"

انطلقت النظرية النقدية من رواد **مدرسة فرانكفورت (هوركهايمر/ Horkheimer، أدرنو/ Adorno، ماركوز/ Markoz، هابرماس/ Habermas)** الذين انتقدوا الفهم **الوضعي** للعلم والحياد المزعوم للمعرفة.

ميّز **هوركهايمر** بين:

-**نظرية تقليدية**: تفسر الواقع كما هو، وتتعامل مع البنى الاجتماعية على أنها معطاة وطبيعية.

-**نظرية نقدية**: تكشف الشروط التاريخية والاجتماعية التي أنتجت هذا الواقع، وتستهدف **تغييره** لا الاكتفاء بشرحه.

من هنا جاءت الفكرة المحورية: **لا وجود لمعرفة خالية من القيم**؛ كل نظرية مرتبطة بموقع اجتماعي وبمصلحة، والعلم ذاته يمكن أن يصبح أداة هيمنة إن لم يسائل ذاته.

وعليه، انطلق النظرية النقدية من تراث مدرسة فرانكفورت التي ربطت بين الفلسفة الماركسية والتحليل الثقافي والنقد الاجتماعي، مركزة على الهيمنة البنيوية في المجتمعات الرأسمالية الحديثة.

انتقلت هذه الروح النقدية إلى حقل العلاقات الدولية في الثمانينيات كرد فعل على هيمنة الواقعية الجديدة والليبرالية الجديدة ذات المنحى الوضعي/العقلاني، وسعت إلى إحياء البعد النقدي في **الماركسية** وتوسيعه ليشمل النظام الدولي ككل.

2- الخلفية الماركسية بصياغة إنسانية:

تستند النظرية **النقدية** إلى الميراث **الماركسي** (فكرة البنية التحتية الاقتصادية، والطبقات، والهيمنة)، لكنها تعيد صياغته بصورة أقل حتمية وأكثر اهتمامًا بالثقافة والوعي والخطاب.

بدل الاقتصار على الصراع الطبقي داخل الدولة، توسع النظرية النقدية التحليل إلى:

-كيف تعيد الأنظمة الرأسمالية إنتاج **الهيمنة** عبر المدرسة، الإعلام، الثقافة، والقانون.

-كيف تخفي الأيديولوجيا علاقات السيطرة وراء شعارات مثل "الحياد"، "المصلحة العامة"، "الأمن القومي..."

هذا البعد هو الذي سيسهل لاحقا نقل التفكير الماركسي–النقدي إلى مستوى **النظام الدولي**.

3- انتقال الأفكار النقدية إلى العلاقات الدولية (كوكس)

يأتي **روبرت كوكس (Robert Cox)** كأحد المؤسسين للنظرية النقدية في العلاقات الدولية؛ اشتهر بفكرته: "النظرية دائما لأحد ومن أجل أحد"، (أي أن كل نظرية تخدم مصالح أو مواقع معينة).

ميز **كوكس** بين:

-**نظريات حل المشكلات/الوضعية** :Problem-Solving Theories**الواقعية والليبرالية**، التي تسعى إلى جعل النظام الدولي يعمل بشكل أكثر كفاءة دون المساس بأسسه.

-**النظريات النقدية**: التي تسعى إلى كشف **كيف تشكل التاريخ والبنى المادية ومؤسسات** النظام الدولي القائم، وكيف يمكن تغييره لصالح الفاعلين المهيمن عليهم.

هنا يبدأ نقل أسئلة مدرسة فرانكفورت إلى الحقل، من نقد الرأسمالية والمجتمع الصناعي إلى نقد النظام الدولي، والمؤسسات المالية، والمنظمات الدولية، وخطاب الأمن والتنمية.

4- مركزية مفهوم التحرر(Emancipation)

مع **كين بوث (Ken Booth)** ومدرسة الأمن النقدي في ويلز، أصبح مفهوم **التحرر** هو القلب النابض للنظرية النقدية في العلاقات الدولية، حيث فهم التحرر كنقل محور الاهتمام من "أمن الدولة" إلى **أمن الإنسان والفئات المقموعة** (شعوب، أقليات، طبقات، جنوب عالمي)، أي:

-التحرر من العنف البنيوي (الفقر، التهميش، الاستغلال).

-التحرر من العنف المباشر (الحروب، القمع، التعذيب).

-التحرر من الهيمنة الرمزية/الخطابية التي تجعل هذه الأوضاع تبدو "طبيعية" أو "ضرورية."

بهذا تصبح وظيفة النظرية هي **كشف تلك الأشكال من الهيمنة** وفتح المجال أمام تصور بدائل أكثر عدالة وإنسانية في التنظيم الدولي.

مما سبق، يتبين، أن النظرية النقدية في جذورها الفكرية اتسمت بنقلة إبستمولوجية كبرى:

- من علم وضعي يدعي الحياد ويبحث عن تفسيرات "محايدة" لسلوك الدول.
- إلى نظرية ترى أن **المعرفة نفسها جزء من الصراع** وأن مهمة الباحث ليست فقط وصف العالم، بل أيضا **نقده والمساهمة في تغييره** نحو مزيد من التحرر.

***-المنطلقات المعرفية والمنهجية للنظرية النقدية:**

ترفض النظرية النقدية ادعاء الموضوعية المحايدة في النظريات الوضعية، وتؤكد أن كل نظرية هي دائمًا لشخص ما ومن أجل غرض ما، أي أنها مشحونة بالقيم والمصالح.

ترى أن حقل العلاقات الدولية جزء من العلوم الاجتماعية، ولا يمكن عزله عن السياقات التاريخية والثقافية والإيديولوجية، لذلك تشكك في إمكان حسم الظواهر الدولية بأساليب القياس الكمي والتجريب وحدها.

ثانيا: تعريف النظرية النقدية في العلاقات الدولية:

ثانيا: الاسهامات النظرية للنقدية في العلاقات الدولية:

1- توسيع مفهوم النظرية ووظيفتها:

أسهمت النظرية النقدية في نقل النظرية من مجرد أداة لتفسير الواقع إلى أداة لـ"نقد" الواقع وفتح أفق تغييره، عبر التمييز بين نظريات حل المشكلات التي تشتغل داخل النظام القائم، ونظريات نقدية تسائل أسسه التاريخية والبنيوية.

أدخلت فكرة أن كل نظرية مشروطة بموقع اجتماعي ومصلحي، وأن ادعاء الحياد والموضوعية في النظريات الوضعية (الواقعية والليبرالية) يخفي دائمًا انحيازًا لمصالح قوى مهيمنة.

2- ربط المعرفة بالسلطة والهيمنة:

قدمت النقدية إسهاما مركزيا في كشف العلاقة بين الإنتاج المعرفي وعلاقات الهيمنة، مبينة أن مفاهيم مثل "النظام الدولي"، "الأمن القومي"، "الاستقرار"، و"التنمية" ليست أوصافا بريئة بل أدوات لإعادة إنتاج بنى القوة.

بهذا المعنى ساعدت على تفكيك الخطاب المهيمن في العلاقات الدولية، وبيان كيف يمكن للعلم والسياسات أن يعملا معا للحفاظ على امتيازات الشمال، أو القوى الكبرى، أو النخب الحاكمة.

3- إعادة تعريف الأمن والتحرر:

أسهمت النظرية النقدية، خصوصا عبر دراسات الأمن النقدي، في نقل محور التحليل من أمن الدولة إلى **أمن الإنسان والتحرر** من العنف البنيوي والمباشر والرمزي.

قدمت مفهوم التحرر بوصفه معيارا معياريا للحكم على السياسات والنظريات، مقترحة أن الهدف ليس فقط استقرار النظام الدولي، بل تقليص علاقات القهر واللامساواة التي يعاني منها الأفراد والمجتمعات في ظل هذا النظام.

4- نقد النظام الدولي والمؤسسات الدولية:

طورت النقدية تحليلات ترى في المؤسسات الدولية، والمنظمات الاقتصادية، والقانون الدولي جزء من بنية الهيمنة العالمية، لا مجرد آليات حيادية لتنظيم التعاون، فهذا سمح بإعادة قراءة قضايا مثل العولمة، التدخل الإنساني، مشروطية المساعدات، وبرامج التكيف الهيكلي بوصفها ممارسات تعيد إنتاج المركز/الهامش بدل تجاوز الاختلالات البنيوية، وفتح حوار مع الماركسية، ونظريات التبعية، وما بعد الاستعمار في تفسير اللامساواة العالمية.

ثالثا: موقع النظرية النقدية في خريطة النظريات ما بعد الوضعية:

تصنف النظرية النقدية أحد أهم التيارات **ما بعد الوضعية / التأملية** في حقل العلاقات الدولية، لكنها تحتل فيه موقعا خاصا من حيث وضوح مشروعها التحرري وصلتها المباشرة بمدرسة فرانكفورت والنيوغرامشيين.

1- ضمن ما بعد الوضعية:

تدرج النظرية النقدية إلى جانب ما بعد البنيوية، والنسوية، وما بعد الاستعمار، وغيرها من المقاربات التي تشترك في رفض ادعاء الحياد والموضوعية في النظريات الوضعية (الواقعية، الليبرالية) والتشكيك في إمكانية علم للعلاقات الدولية على نمط العلوم الطبيعية، حيث تعتبر هذه التيارات **ما بعد وضعية/ التأملية Post-Positivist / Reflectivist** ، لأنها تركز على كيف تنتج المعرفة والمعاني والهوية، وعلى التجربة المعيشة للسلطة والهيمنة، بدل الاقتصار على تفسير سلوك فاعلين عقلانيين في بنية معطاة.

2- خصوصية النقدية داخل ما بعد الوضعية:

تتميز النظرية النقدية عن كثير من المقاربات ما بعد الوضعية الأخرى في نقطتين أساسيتين:

*-أنها لا تكتفي بالتفكيك والارتياب في "السرديات الكبرى"، بل تربط نظرية المعرفة بمشروع معياري واضح هو **التحرر (Emancipation)**؛ أي تقليص علاقات القهر واللامساواة على مستوى النظام الدولي.

*-أنها تحتفظ بنزعة كلية نسبيا(neogramscian, Frankfurt School) ، تحاول ربط البنى المادية (الرأسمالية العالمية) بالهيمنة الأيديولوجية والمؤسساتية، أكثر من بعض الاتجاهات ما بعد البنيوية التي تميل إلى التركيز على الخطاب بشكل شبه حصري.

رابعا: أبرز مفكري النظرية النقدية في العلاقات الدولية:

1- رواد مدرسة فرانكفورت (الأساس النظري العام):

***ماكس هوركهايمر:** أول من صاغ مصطلح النظرية النقدية في ثلاثينيات القرن العشرين، وميّز بين النظرية التقليدية والنظرية النقديةالتي ترتبط بالتغيير والتحرر لا مجرد التفسير.

***- تيودور أدورنو، هربرت ماركوزه، إريك فروم، ووالتربنيامين:** ساهموا في نقد العقل الأداتي، وهيمنة الرأسمالية والثقافة الجماهيرية، وهي أفكار انتقلت لاحقًا إلى تحليل بنية النظام العالمي وهيمنته.

***- يورغن هابرماس:** يمثل الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت، ويعد المرجعية النظرية الأهم للنقدية المعاصرة من خلال نظريته في الفعل التواصلي، وأخلاقيات الخطاب، وفكرة وضع الكلام المثالي التي استثمرها منظّرو العلاقات الدولية في قضايا الشرعية العالمية والديمقراطية الكوزموبوليتية.

2- منظرو النقدية داخل حقل العلاقات الدولية:

***- روبرت كوكس Robert Cox:** يعد الأكثر مركزية في النظرية النقدية في العلاقات الدولية؛ ميّز بين نظرية حلّ المشكلات والنظرية النقدية، وربط تحليل النظام الدولي بالعلاقات بين القوى الاجتماعية، وأنماط الإنتاج، والهياكل التاريخية.

***- ريتشارد أشلي Richard Ashley:** أحد أهم من أدخل الحسّ التفكيكي والنقدي إلى نظريات العلاقات الدولية عبر نقد الواقعية الجديدة والافتراضات الميتافيزيقية الكامنة فيها .

***- مارك هوفمان Mark Hoffman:** ساهم في بلورة مفهوم النظرية النقدية في العلاقات الدولية كتيار مميز خلال المناظرة الرابعة مع التيار العقلاني/الوضعي.

***- أندرو لينكلتر Andrew Linklater:** ركز على البعد الأخلاقي والقانوني الكوني، وطرح سؤال حدود المجتمع السياسي وتوسيع دوائر الانتماء والواجب الأخلاقي بما يتجاوز الدولة القومية نحو مجتمع عالمي أكثر تحررا.

3- في الدراسات الأمنية النقدية:

***- كين بوث Ken Booth:** يعتبر البارز في الأمن النقدي، صاغ مفهوم الانعتاق بوصفه غاية الأمن الحقيقي، منتقدا اختزال الأمن في بقاء الدولة، ومؤكدا على أمن الأفراد والجماعات والتحرر من البنى القمعية.

***- باري بوزان Barry Buzan** (مدرسة كوبنهاغن): رغم أنه ليس نقديا خالصا ككوكس وبوث، إلا أن أعماله حول توسيع مفهوم الأمن والقطاعات الأمنية وفكرة الأمننة تستثمر ضمن أفق نقدي في تحليل الخطاب والسلطة في حقل الأمن.

رابعا: تطبيقات النظرية النقدية في إطار ما بعد الوضعية في حقل العلاقات الدولية:

النظرية النقدية ليست فقط تنظير تجريدي، بل تستخدم فعليا لتحليل الأمن، والمؤسسات الاقتصادية الدولية، والسياسات النيوليبرالية، بوصفها مواقع لهيمنة بنيوية وخطابية في آن واحد، وهو جوهر المقاربة ما بعد الوضعية.

من أبرز النماذج التطبيقية التي تجسد تلاقي النظرية النقدية مع المقاربات ما بعد الوضعية، نجد ما يلي:

***- دراسات الأمن النقدي عند كين بوث (Booth)** وكتابه Theory of World Security، يعاد تعريف الأمن انطلاقا من مفهوم التحرر، ويركز التحليل على أمن البشر لا الدول، مع استخدام أدوات نقدية وتأويلية بدل النماذج الوضعية التقليدية .

***- دراسات الأمن النقدي (Critical Security Studies)** التي تحلل كيف تغيرت خطابات وممارسات الأمن، وتظهر كيف تنتج الخطابات الأمنية تهديدات وهويات معينة، كما في مجموعات"Critical Security Studies: Concepts and Cases" .

***- دراسات النيوغرامشيين حول المؤسسات الدولية**، مثل تحليلات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي من منظور كوكس/غرامشي، والتي تكشف كيف تسهم هذه المؤسسات في إعادة إنتاج الهيمنة النيوليبرالية عالميا، مثل تحليل البنك الدولي أو دور صندوق النقد في التحول النيوليبرالي في تركيا.

*- أبحاث تربط بين **التحرروالأمن** في إطار مدرسة الأمن النقدي، تناقش حدود شعار "الأمن كتحرر" وعلاقته بالعنف والمقاومة، وتطبقه على قضايا مثل الهجرة، الاتجار بالبشر، أو سياسات المخاطر في الاتحاد الأوروبي.